-٤-

حرية الضمير . . وتغيير الدِّين

فى الموقف مما يسمى « حرية الضمير » بمعنى حرية الكفر والزندقة والإلحاد .. وتغيير الدين .. تعبر الوثيقة الفاتيكانية عن « **العقلية الغربية** » وليس عن « **العقلية الشرقية** ».. ثم تذهب لتفرض هذه العقلية الغربية على الشرقيين ـ مسيحيين ومسلمين ـ!..

ففى الغرب ـ وبالذات فى أوربا ـ ليس الدين مما يغار عليه الإنسان ، ولا هو من ثوابت الهوية التى يتمسك بها ، ويضحى فى سبيلها .

ولقد اكتشف رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م] هذه الحقيقة عندما ذهب إلى باريس ـ بنت الكاثوليكية .. وعاصمة أكبر بلادها ـ فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، فكتب يقول :

« **إن أكثر أهل هذه المدينة ـ [باريس] ـ إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا يتبع دينه ، ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفِرَق المُحَسِّنة ، والمُقبِّحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، ولذلك فهو لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب**

لخروجه عن الأمور الطبيعية . . ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية »![1]

فالمرء ـ فى تلك الحضارة ـ لا غيرة له على دينه ، وهو يتنازل عنه ، ويهمله ، ويبدله كما يبدل المنزل أو السيارة ـ وربما أدنى من ذلك ! ـ . . ولذلك أسباب تتعلق بالميراث الوثنى الإغريقى . . وبالطابع الخرافى للاهوت الكنسى . . وبالفلسفة الوضعية . . وبالعلمانية ، بعد عصر النهضة الأوربية الحديثة ، التى أنزلت المسيحية عن عرشها فى الفضاء الأوربى .

لكن مكانة الديانة فى الشرق ـ مسيحية كانت أو إسلاماً ـ عند المسيحيين وعند المسلمين ـ ليست على هذا المنوال . .

فالمسيحيون المصريون الأوائل ـ والشرقيون عموماً ـ كانوا يُقبلون على الموت ، طعاما للأسود وللنيران ، دون أن يتخلوا عن دينهم أو يبدلوه! .

وقبل المسيحية ، يحكى القرآن الكريم قصة « أصحاب الأُخدود » ، الذين أقبلوا ـ فرحين ـ على الحرق بالنيران فداء للدين الذى به يؤمنون ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ٢ ص ٧٩ ، ٣٢ ـ دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(البروج: ٤-٩) .

وعندما ظهر الإسلام ، سجل التاريخ ، أروع صور الصمود البطولى والأسطورى للمؤمنين المستضعفين - من الرجال والنساء - الذين اكتووا بحرارة الرمضاء كى يبدلوا دينهم ، فما زادهم ذلك إلا إيماناً ، وإعلانا عن التوحيد : « أَحَدٌ أَحَد »! . .

وفى النسق العقدى الإسلامى أصبح الحفاظ على الدين وعلى الوطن - الذى هو وعاء إقامة الدين - معيارا للموالاة وللمعاداة . . وصار الحفاظ على الدين أول ضرورة من ضرورات مقاصد الشريعة الإسلامية . . وجاء فى الحديث النبوى الشريف : « **من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد** » - رواه الترمذى - . .

وبهذه القيمة ، وهذه المكانة للدين ، اصطبغت الحضارة الإسلامية ، وكل أبنائها ، المسلمون منهم والمسيحيون . . حتى أننا نجد - فى واقعنا المعاصر - شعوب الشرق - المسيحيين منهم والمسلمين - يضعون الدين والعرض والشرف فى المقام الأعلى ، ويضحون فى سبيلها بالحياة . . ولذلك عُدّ تغيير الدين - لدى

المسلمين والمسيحيين الشرقيين ـ خيانة وعارا ، يعاقب عليه بالقتل ـ حتى وإن كان ذلك افتئاتا على السلطان والقانون والقضاء! ـ . . .

وتلك هى الحقيقة الحضارية الإسلامية الشرقية التى غابت عن العقلية الغربية والمتغربة التى صاغت وثيقة الفاتيكان ! . . فقالت ـ بلهجة النقد والاستنكار ـ فى البند ٣٧ ـ :

« فى الشرق عادة ما تعنى الحرية الدينية حرية العبادة ، وبالتالى فهى لا تعنى بعدُ حرية الضمير ، أى حرية أن يؤمن الشخص أو لا يؤمن ، أن يمارس ديانة سرًّا أو علناً بدون أية عقبة ، وبالتالى حرية تغيير الديانة . إن الديانة فى الشرق ، عادة ما تكون اختياراً اجتماعيًّا ، بل قوميًّا ، لا اختياراً فرديًّا ، فتغيير الديانة يعتبر خيانة تجاه المجتمع والثقافة والأمة المبنية أساساً على تقليد دينى » .

ويا ليت هذه الوثيقة الفاتيكانية سلمت بهذا التمايز الحضارى الشرقى إزاء الدين ، وإزاء تغيير الدين ، باعتباره خصيصة حضارية شرقية ، يستوى فى الاستمساك بها المسيحيون والمسلمون على حد سواء .

ولكنها انساقت وراء مقاصد تنصير المسلمين ، وتغيير دينهم ، ووراء ذلك الذى سمته « حرية الضمير » للمسلم كى يغير دينه . .

فتحدثت ـ فى البند ١١٠ ـ عن «**أن الحرية**» **الدينية وحرية الضمير مجهولتان بوجه عام فى الإطار الإسلامى**» . . وقالت ـ فى البند ٣٨ ـ : « **إن الاهتداء إلى الإيمان المسيحى يُنظر إليه كنتيجة لاقتناص مغرض ، وليس لاقتناع دينى حقيقى**» .

ثم وقعت هذه الوثيقة الفاتيكانية فى التناقض ، عندما أطلقت على الانتقال من الكاثوليكية إلى الإنجيلية ـ والمفترض أنهما دين واحد ـ مصطلح « الاقتناص »!.. فقالت ـ فى ذات البند ـ ٣٨ ـ : « **إن بعض الجماعات الإنجيلية تمارس الاقتناص المسيحى علنا** »!

ثم مضت فأمعنت فى تحدى هذه « الخصوصية الدينية الحضارية الشرقية » إزاء مكانة الدين ، فطالبت ـ فى ذات البند ـ « باحترام حقوق الإنسان ، حرية ضميره كاملة »! . .

لقد تجاهلت هذه الوثيقة ـ التى صاغتها العقلية الغربية والمتغربة ـ التى لا تغار على الدين ـ أن هذه الغيرة على الدين ، و اعتباره عنوانا على الذات ، واعتبار تغييره خيانة اجتماعية ، هى قيمة سائدة حتى داخل الطوائف المسيحية الشرقية ذاتها . . وليست ـ فقط ـ بينها وبين الإسلام ـ . .

ـ فالأرثوذكس الأقباط يرفضون الزواج فى كنائس الكاثوليك والإنجيليين . . ولا يعدونه زواجا مسيحيًا ! . . ويرفضون الصلاة فى غير الكنائس الأرثوذكسية .

- وكثيرون من أبناء هذه الطوائف يرتكبون جرائم القتل ـ خارج القانون ـ بسبب تغيير الدين ـ الذى تدافع عنه الوثيقة الفاتيكانية ، وتدعو إليه ، وتسميه « حرية الضمير » . . بل إن الكنيسة الأرثوذكسية المصرية تختطف وتسجن ـ في الأديرة ـ من ينتقل منها إلى الإسلام ! .

● بل إن الفاتيكان ـ الذى صاغ هذه الوثيقة ـ غاضب كل الغضب من « حرية الضمير » هذه التى أدت وتؤدى إلى انتقال رعيته من الكاثوليكية إلى الإنجيلية فى أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية! . .

لكنه يريد تسويق هذا الذى سماه « الاقتناص » بين المسلمين ، تحت عنوان « حرية الضمير »! . . وهى حرية مرفوضة إسلاميًّا ، لأنها تعنى حرية التنصير ، الذي غدا حربا عالمية عظمى ضد الإسلام والمسلمين ، وليس مجرد قناعة فردية خاصة يمليها العقل والضمير .